دراسات وأبحاث

مساهمة الصحابيات في تطوير الأدب العربي : الخنساء رضي الله عنها نموذجاً

بقلم : د . محمود حافظ عبد الرب مرزا *

لا مراء في أن الله سبحانه وتعالى قد منح العرب جوهر اللغة والبيان ، وبما أن اللغة هي خير أداة لنقل الأفكار والمفاهيم وإبراز المشاعر والأحاسيس ، كان لها أثر بالغ في نهضتهم الثقافية وبلورة شخصيتهم الأدبية ، فظلّ العرب يتباهون بها منذ غابر الزمان ؛ حيث برزوا في عدد من الفنون الأدبية وبالأخص في قرض القصائد في مختلف الأغراض حتى كتبت بعضها بماء الذهب ، وعلقت على جدار الكعبة – حسبما يقال – أيضاً ، حتى تظل خالدة تحكي مآثرهم البطولية ومغامراتهم الغرامية وأحاديثهم المختلفة . ولقد حظيت هذه الظاهرة قبولاً واسعاً لدى أبنائها حتى في ظل انتشار الإسلام في ربوعها . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرّ هو الآخر عند سماعه للقصائد الحسنة ويُبدي رضاه ويُشيد بها ؛ حيث يقول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : " إنّ من الشعر لحكمة " . وليس ثمة شك أن المحبة التي أولاها الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا مثيل لها على مدى التاريخ البشري .فعندما شنّ أعداء الإسلام الهجوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسخّروا جُلّ طاقتهم في إيذائه ، وأخذوا يسددون سهام أشعارهم إليه وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ، عزّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ، لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال للأنصار : " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم " [1] ، فهبّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يدافعون

* أستاذ اللغة العربية وآدابها ، جامعة الله آباد .

[1] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢٠ ، ص ٤٧ .

عنه بألسنتهم وشرّفهم الله تعالى بفضيلة الجهاد باللسان أيضاً . ومن أبرزهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضوان الله عليهم أجمعين . فما كان إلا أن احتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة ، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه في إحدى هذه القصائد [1] :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

ومن المثير للاهتمام أن الصحابيات اضطلعن بدور بارز في قرض القصائد أيضاً ، إذ كانت قصائدهن مبنية على الحكمة والبصيرة . وبناءً على محاسن الكلام والشعر وآثارهما فإن الصحابيات لا يقللن شأناً بأي حال من الأحوال عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في الخيال والإبداع ، ومن أبرزهن على سبيل المثال لا الحصر ، أروى بنت عبد المطلب ، صفية بنت عبد المطلب ، الخنساء ، رقية بنت صيفي ، سعدى العبشمية ، شيماء بنت الحارث ، عاتكة بنت زيد ، قتيلة بنت النضر رضي الله عنهن أجمعين ، وغيرهن كثير .

لقد أعزّ الله صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها بالإسلام فهي أخت أسد الله ورسوله ، حمزة بن عبد المطلب ، ووالدة الزبير بن العوام رضي الله عنهما ، عُرف عنها بكونها راويةً لعدد من الأحاديث النبوية ، وسيدةً صبورةً وأديبةً وشاعرةً أيضاً . وجاء في بعض كتب السيرة ذكر لبعض مراثيها في وفاة خير البشر صلى الله عليه وسلم ، حيث تقول [2] :

لهف نفسي ! وبت كالمسلوب آرق الليل فعلة المحروب
حين قالوا : إن الرسول قد أمسى وافقته منية المكتوب
فإلى الله ذاك أشكو وحسبي يعلم الله حوبتي ونحيبي

وهاك بعض الأبيات التي قيل بأنها تعود إلى أروى بنت عبد المطلب

---

[1] نفس المصدر ، ص ٤٨ .

[2] تقي الدين المقريزي ، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ، تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النميسي ، ج ١٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١م ، ص ٥٩٩ .

رضي الله عنها ؛ حيث ذكر ابن سعد أنها رثت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشد لها هذه الأبيات[1] :

ألا يا رسولَ اللهِ كنتَ رجاءنا وكنتَ بنا بَراً ولم تك جافياً
وكنت بنارؤوفاً رحيماً نبينا ليبك عليك اليوم من كان باكياً
فدى لرسول الله أمي وخالتي وعمي ونفسي قصرة ثم خالياً
فلو أن رب الناس أبقاك بيننا سعدنا ولكن أمره كان ماضياً
عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضياً

ومن المسلّمات أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تحظى بمكانة مرموقة وعالية في المجال العلمي وبالأخص في علوم الحديث والفقه ، فضلاً عن أنها كانت تلم إلماماً واسعاً بتاريخ العرب ، ولها نظرة دقيقة وبارعة في أشعار العرب ، ناهيك عن أنها كانت فصيحة اللسان وعذبة البيان . فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستمع إلى أشعارها ، وكان الشعراء يردون إليها ويسمعونها كلامهم لسعة علمها في هذا المجال ومعرفتها الدقيقة به . وجاء عن هاشم بن عروة عن والده أنها قدّمت ما لا يقل عن مأة وستين شعراً[2] . ويقال بأنها كانت تضع كل ما يطرأ عليها في قالب شعري . يقول عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام ، والعلم ، والشعر ، والطب من عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[3] . كما اعترف بفصاحتها وطلاقة لسانها كثير من الصحابة ؛ حيث يقول الأمير معاوية رضي الله عنه : " والله ما رأيت خطيباً قطّ أبلغ ولا أفطن من عائشة رضي الله عنها "[4] .

أما أم الشهداء ، تماضر بنت عمرو (٥٧٥ – ٦٤٥م) ، فهي شاعرة مخضرمة ، تنتمي إلى قبيلة بنو سليم بنجد ، وهي فرع لقيس بن عيلان ، أسلمت ولقبت بالخنساء[5] ، كما أنها عرفت بأرثى العرب . ولقد

[1] نفس المصدر ، ص ٥٩٧ .
[2] طبقات ، ابن سعد : ٧٢/٨ .
[3] المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الحرمين للطباعة والنشر ، ج ٤ ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ٩٢ .
[4] الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، حديث رقم : ٦٧٣٥ – ١٢/٤ .
[5] جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، أحمد الهاشمي ، المكتبة التّجارية =

أجمع علماء فن الشعر أن العرب لم تشهد إمرأة تفوق عليها في قرض الأشعار على الإطلاق ، إذ أن أبياتها الشعرية التي قرضتها في رثاء أخيها معاوية وصخر ، اللّذين لقيا حتفهما في معارك جرت بين القبائل في العصر الجاهلي ، لدليل على مدى بروزها ونبوغها في مجال الشعر وإتقانها لمحاسنه ومواضع جماله .

ومن الأهمية بمكان أن كبار شعراء العصر الجاهلي وأحد فحوله ، النابغة الذبياني كان يرد سوق عكاظ ؛ حيث كانت تضرب له قبة حمراء لأنه كان أستاذ الشعراء في عصره ، وكان يشعر كبار الشعراء بالفخر إزاء طرحهم لقصائدهم وأشعارهم بين يديه . فعندما قدمت الخنساء لأول مرة إلى السوق ، وأنشدته قصيدتها الرائية التي في أخيها صخراً ، أعجب بها وقال لها : " اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين ، ولولا أن هذا الأعمى أنشدني قبلك (يعني الأعشى) لفضلتك على شعراء هذا الموسم فإنك أشعر الإنس والجن " . وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه متواجداً هناك ، وعندما سمع ما علّق عليه النابغة ، اشتعل غيظاً وغضباً وقال لم تصب رأياً ، لأن أبياتي الشعرية تفوق أشعارها ، فسكت النابغة ، وألمح عليها أن تردّ عليه ، فقالت : أي بيت من أبياتك التي تفتخر بها ؟ فقال :

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضُّحَى وأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا

فردّت عليه الخنساء رضي الله عنها على الفور قائلةً : لقد سقط بيتك هذا في سبعة أو ثمانية مواضع عن الرفعة والعلياء ، لأن " الجفنات " يطلق على أقل من عشرة ، فكان " جفان " أفضل من ذلك . و " الغرّ " يطلق على بياض الجبين ، و " بيض " أنسب من ذلك . " يلمعن " يطلق على اللمعان الموقت ، فكان من الأحرى قول " يشرقن " محله لأن الإشراق يدوم لفترة أكثر من اللمعان . وكان الدّجى أفضل من الضحى ، لأن الضوء يلمع أكثر في الظلام مقابل النهار . وأسياف جمع القلة ، وسيوف أفضل بكثير . ويقطرن لا يبرز أكثر من يسلن ، وهكذا ، فإن الدماء

= الكبرى ، الجزء الأول ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

أنسب من دم في هذا البيت . ففضل حسان عدم الرد عليها وخرج صامتاً [١] .

ومن هذا المنطلق ، ذاع صيت تفوق الخنساء رضي الله عنها في قرض الأشعار في كافة أرجاء العرب ، فاعترف بعظمتها ومدى أهليتها كبار شعراء العرب . فقد كانت قصائد الخنساء تمتاز بالبساطة مع كونها لطيفةً ومؤثرةً للغاية ، إذ يصعب أن يفوق عليها أحد في قرض أبيات الرثاء والفخر [٢] .

وعندما ظهر الإسلام ، وانتشرت الرسالة المحمدية ، ووصلت إلى الخنساء رضي الله عنها تغير إثرها عقلها وقلبها ، فقدمت برفقة عدد من أفراد قبيلتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودخلت في الإسلام ، واستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أشعارها ، بل كان يشيد بها ويقول : " هيه يا خناس " ويومئ إليها بيده [٣] .

وليس ثمة شك أن الخنساء رضي الله عنها قد نالت شهرةً فائقةً في قرض أشعار الرثاء ؛ بحيث لم تستطع أن تنسى أخويها حتى بعد دخولها في الإسلام ، وبالأخص ، أخاها صخراً ؛ حيث تقول [٤] :

يُذكرني طلوعُ الشمس صخراً ... وأذكرُهُ لكلِّ غروبِ شمسِ
ألا يا صخر لن أنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي
ولولا كثرةُ الباكينَ حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وتقول في موضع آخر [٥] :

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني ... فقد أضحكتَني زمناً طويلاً
دفعتُ بكَ الجليلَ وأنت حيٌّ ... فمن ذا يَدفعُ الخطبَ الجليلا
إذا قبُحَ البكاءُ على قتيل ... رأيتُ بُكاءكَ الحسنَ الجميلا

وتقول في موضع آخر [١] : ص ، ٦ .

---

[١] عيسى إبراهيم السعدي ، الخنساء بنت عمرو من شواعر العرب الراثية الباكية ، دار المعتز للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ٢٠١٢م ، ص ٨٤ .
[٢] ابن حجر : الإصابة ١٢/ ٢٢٧ .
[٣] ابن حجر : الإصابة ٢٢٦/١٢ .
[٤] علية مصطفى مبارك ، صحابيات مجاهدات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص ٤٤ .
[٥] نفس المصدر ، ص ٤٤ .

أعـيـنـيّ جُـوداً ولا تجمُدا　　ألا تبكيانِ لصخر الندى ؟
ألا تبكيان الجريءَ الجميلَ　　ألا تبكيانَ الفتى السيدا ؟
طويلَ النِجاد رفيعَ العِمـا　　د سادَ عشيرتـهُ أمردا

كما تقول [2] :

هريقي من دموعك أو أفيقي　　وصبراً إن أطقت ولن تطيقي

وهاك أبيات أخرى لها حيث تقول [3] :

قـذى بـعيـنيـك أم بالعين عُوّار　　أم ذرّفت إذ خلت من أهلها الدار
كأن عـيني لذكراه إذا خطرت　　فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي خُناس على صخر وحقَّ لها　　إذ رابها الدهر إن الدهر ضـرّار
وإن صـخـراً لـوالـينا وسيدنا　　وإن صخـراً إذا نشـتو لنحار
وإن صـخراً لـتـأتـم الهداة به　　كأنه علـم في رأسـه نـار
حـمـال ألـويـة هباط أودية　　شهاد أندية للجـيش جـرّار

ومن أشهر مواقع الخنساء رضي الله عنها هو عندما قدمت بجميع أبنائها الأربعة إلى معركة القادسية ، وقدّمت لهم نصيحة خلال تواجدهم في المعسكر حيث قالت :

" يا أولادي . . إنكم أسلمتم طائعين . . وهاجرتم مع رسول الله مختارين . . والله الذي لا إله إلا هو إنكم لأبناء رجل واحد كما أنكم أبناء امرأة واحدة . . ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم . . وأنتم تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الأجر الجزيل في حرب الكافرين . يا أبنائي ، إن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، والله تعالى يقول : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " . . فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله تعالى سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين . . وبالله على أعدائه مستنصرين . . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سباقها ،

[1] عمر رضا كحالة ، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .
[2] د . عطية العول ، المرأة في العصور العباسية دراسة نحوية وأسلوبية ، ص ١٥ .
[3] نعيم مجاهد عودة ، أدب المرأة العربية الشعر والنثر والحوار ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، ٢٠١١م ، عمان ، ط ١ ، ص ٦٣ – ٦٤ .

وجعلت ناراً على أوراقها ، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلود والمقامة "[١] .

وبعد أن بلغها نعي استشهاد جميع أبنائها في هذه المعركة ، لم تقل سوى " الحمد لله الذي شرّفني باستشهادهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته "[٢] . ووفقاً لبعض الرويات فإنها توفيت بعد معركة القادسية بسبع سنوات وذلك عام ٢٤هـ[٣] .

لا ريب في أن الخنساء رضي الله عنها هي تلك المرأة التي بدّل الإسلام حياتها بأكملها لأنها كانت تبكي وتذرف الدموع لمقتل أخويها قبل دخولها في الإسلام ، ولكنها وبعد أن دخلت في رحابه أصبحت صحابيةً عظيمةً ، وتركت مثالاً فريداً للتضحية والثبات في الإسلام ، مع أنها ظلّت حتى بعد اعتناقها للإسلام تتذكر أخويها ، ولكنها تبدي قلقها من أنهما قد قتلا على الشرك وياليتهما استشهدا في سبيل الله .

ومن هذا المنطلق ، فإن الصحابيات رضوان الله تعالى عليهن أجمعين قد فضّلن السير في حياتهن على أصول الإسلام وسننه ، ونبذ سوء الخلق ، والتفاني في حب الدين ، وأبدين الاهتمام المنشود بالصدق والوفاء والعدل والصبر والشكر والقناعة ، والعمل على تطبيق التعاليم الإسلامية ، في حين أن الصحابيات اللاتي حظين بالملكة الشعرية ، فلا شك في أنهن تحمسن في قرض الأبيات أيضاً ، إلا أنهن أبدين حرصهن الكامل على أن تكون هذه الأبيات مقتصرة على التوحيد والآخرة وإظهار محاسن الإسلام والتطرق إلى المواضيع المليئة بالعبر والمواعظ حتى اضطلعن بدور بارز في إصلاح النفوس . علماً بأن الأبيات المندرجة في عدد من كتب السير والتراجم والمنسوبة إليهن لا تؤيد إلا هذا القول ، وبالتالي ، لا يمكن أحداً أن يغض الطرف عن مدى إسهاماتهن في إثراء اللغة العربية وتطوير الأدب العربي بشكل عام . والله على ما نقول وكيل .

---

[١] أمهات المؤمنين وسيدات أخريات ، منصور الرفاعي عبيد ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

[٢] ابن حجر : الإصابة ٢٢٨/١٢ .

[٣] العيون في أشعار العرب وأمثالهم وقصصهم ، محمد عبد الرحيم ، ط ١ ، بيروت ، دار الراتب الجامعية ، ٢٠٠٠م ، ص ٩٨ .